عنوان البرنامج: مدخل إلى الفكر العقدي السني

الوحدة الثالثة: الأعلام الكبار للفكر الأشعري

الدرس الثالث: أبو المعالي الجويني، وأبو حامد الغزالي

اسم المحاضر: الدكتور جمال علال البختي

أبو المعالي الجويني، وأبو حامد الغزالي

1. عبد الملك الجويني: (419هـ-478هـ)

تعرض الأشاعرة في عهد السلطان طُغْرُل بِـكْ لمحنة شديدة بسبب وزيره عميد الملك الكُنْدُري، الذي أمر بلعن الإمام الأشعري على المنابر. فهرب عدد كبير من الأشاعرة واستوطن بعضهم الحجاز منهم البيهقي (ت:458هـ)، والقشيري (ت:385هـ)، والجويني وغيرهم. وبعد موت هذا الوزير تحسن حال الأشاعرة خاصة مع تولي الحكم أَلْبْ أَرْسْلاَن ووزيره نظام الملك، مؤسس المدارس النظامية التي دافعت عن المذهب السني وعن عقيدة الأشاعرة.

نبذة عن حياة الجويني:

الجويني هو أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن عبد الله الجويني، ولد سنة: 419هـ بنيسابور في بيت عُرف بالعلم والتديُّن؛ فأبوه كان واحدا من علماء وفقهاء نيسابور المعروفين وله مؤلفات كثيرة في التفسير والفقه والعقائد والعبادات، وقد حرص على تنشئة ابنه عبد الملك تنشئة إسلامية صحيحة فعلمه بنفسه العربية وعلومها، واجتهد في تعليمه الفقه والأصول. واستطاع الجويني أن يحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، ونهل من العلم والمعرفة في شغف ودأب شديدين، فأخذ علوم الفقه والأشعرية عن «أبي القاسم الإسفراييني»، كما تلقى علوم القرآن الكريم على يد «أبي عبد الله النيسابوري الجنازي، الذي عرف بشيخ القراء، وغيرهما فصار من أئمة عصره المعروفين وهو لم يتجاوز العشرين من عمره، فلما توفي أبوه جلس مكانه للتدريس وهو في تلك السن المبكرة؛ فكان يدرس المذهب الشافعي، ويدافع عن العقيدة الأشعرية.

وفي سنة 445هـ وقعت فتنة الأشاعرة المذكورة سابقا فآثر الفرار إلى كرمان، انتقل بعدها إلى بغداد فدرس بها، ثم استقر بعد ذلك أربع سنوات بمكة حيث أقرأ، وأفتى، وجادل وناظر، وصلى بالناس إماما للحرم فسمي لذلك ب»إمام الحرمين».

وبعد وفاة السلطان السلجوقي طُغْرُل بِكْ تولى ابنه أَلْبْ أَرْسْلاَن الحكم فعزل الوزير الكُنْدُري واستوزر بدله نظام الملك الشافعي الأشعري، فأعاد هذا الأخير الاعتبار للأشاعرة ورموزها، فقرب أكابرهم وأكرم أشياخهم وكان منهم الجويني الذي عاد إلى نيسابور واشتغل مدرسا بالمدرسة النظامية وألف كتبا وَسَمَها باسم نظام الملك اعترافا له بالفضل.

1. مؤلفاته ووفاته:

لأبي المعالي عدة مؤلفات وكتب من أهمها: «الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد»، و»البرهان في أصول الفقه»، و»الرسالة النظامية»، و»نهاية المطلب في دراية المذهب»، و»الشامل في أصول الدين»، و»غياث الأمم في التياث الظلم»، و»لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة»، و»الورقات» في أصول الفقه.

وتوفي الجويني بعد رحلة حياة حافلة بالعلم والعطاء، حيث أصيب بعلة شديدة، فلما أحس بوطأة المرض عليه انتقل إلى «بُشْتَنِقَان» للاستشفاء بجوها المعتدل، ولكن المرض اشتد عليه فمات بها، وذلك في سنة:478هـ عن عمر بلغ تسعا وخمسين عاماً.

2. مركز الجويني واجتهاداته:

تخرّج الجويني من مدرسة الأشاعرة –كما قلنا– على يد الشيخ أبي القاسم الإسفراييني، وبفضل مواهبه الخاصة واطلاعه الكبير صار إمام المتكلمين في عصره، بل صار إمام الأشاعرة في جميع العصور، فهو لم يكن مجرد ناقل للمذهب، بل لقد عمل بشخصيته الفذة وعقله الراجح على تحليل الآراء المذهبية، بل قام حتى بنقد أسلوب شيوخه. وكان لاستقلاليته في الفكر والنظر صدى قوي جعل بعض المؤرخين ينكرون أشعريته بسبب بعض مواقفه المتميزة داخل المدرسة.

لقد عمق الجويني البحث في القضايا العقدية التي استقر عليها القرار في المدرسة الأشعرية، سواء في تبني النظريات الطبيعية وعلى رأسها نظرية الجوهر الفرد، ونادى بتأويل الصفات الخبرية، وتوسع في بسط الأدلة لإثبات الوجود الإلهي، وصفة الوحدانية، كما تبنى القول بالأحوال، وفصّل في مبحث النبوات وفي قضايا المعجزات، وطور البحث في الإنسانيات ومواضيع القدر، ثم في مباحث السمعيات والإمامة، لا سيما في كتب: «الشامل»، و»الإرشاد»، و»اللمع».

كما تميزت مدرسة الجويني بأنها فتحت المجال للدراسات المنطقية داخل الحقل الكلامي، ولذلك طغى هذا الجانب العقلاني على أدلة الجويني وتلامذته. وكانت أهم أدلته ترتكز على قياس الغائب على الشاهد، وعلى السبر والتقسيم، وأحيانا على الاستقراء. فقد أفاد إمام الحرمين من فلسفة اليونان التي أكسبته مقدِرة على الجدل وقوة على الاستدلال، فتوفّق في التحديدات الاصطلاحية وفي صياغة الموضوعات وبناء الحجج، ورجّح كفة العقل على النقل.

ومن جهة أخرى أدرك إمام الحرمين أن هناك طائفة أشد خطرا على العقيدة من المعتزلة –الذين جعلهم الأشاعرة أكبر خصومهم– وهم الفلاسفة، ولذلك اعتنى بالرد عليهم في مؤلفاته، غير أنه كان قليل البضاعة من الفلسفة فلم يتمكن من النيل منهم، ولكنه بفضل تلك المحاولة مهد السبيل لتلميذه الغزالي الذي تولى مهمة مقارعتهم ومعارضتهم بعد ذلك. فماذا يمكن القول عن أبي حامد الغزالي؟

2. أبو حامد الغزالي(450هـ–505هـ)

حياته وكتبه:

ولد أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي الأشعري الملقب ب»حجة الإسلام» و»زين الدين» سنة 450 هـ في قرية «غزالة» القريبة من طوس من إقليم خراسان عام 450 هـ، وإليها ينسب. ونشأ في بيت فقير؛ فقد كان والده رجلاً زاهداً ومتصوفاً لا يملك غير حرفته، ولكن كانت لديه رغبة شديدة في تعليم ولديْه محمد وأحمد. وحينما حضرته الوفاة عهِد إلى صديق له متصوف برعاية ولديه، وأعطاه ما لديه من مال يسير، وأوصاه بتعليمهما وتأديبهما. فاجتهد الرجل في تنفيذ وصية الأب على خير وجه حتى نفد ما تركه لهما أبوهما من المال، وتعذر عليه القيام برعايتهما والإنفاق عليهما، فألحقهما بإحدى المدارس التي كانت منتشرة في ذلك الوقت، والتي كانت تتكفل بطلاب العلم فيها نفقة وتعليما.

قال أبو الحسن الفارسي، خطيب نيسابور: «...أبو حامد الغزالي، حجة الإسلام والمسلمين، إمام أئمة الدين، من لم تر العيون مثله... شدا طرفاً في صِباه بطوس، من الفقه على الإمام أحمد الراذكاني. ثم قدِم نيسابور مختلفاً إلى درس إمام الحرمين، في طائفة من الشبان من طوس. وجدَّ، واجتهد، حتى تخرج عن مدة قريبة، وبذ الأقران، وحمل القرآن، وصار أنظر أهلِ زمانه، وواحد أقرانه، في أيام إمام الحرمين. وكان الطلبة يستفيدون منه، ويدرُس لهم، ويرشدهم، ويجتهد في نفسه. وبلغ الأمر به إلى أن أخذ في التصنيف. وفي هذه الفترة ألف الغزالي كتابه «المنخول» وعرضه على شيخه الجويني، فأعجب به قائلاً:

«دفنتني وأنا حي! هلا صبرت حتى أموت؟!». واجتهد الغزالي في طلب العلم حتى تخرج في مدة قريبة وصار أفضل أهل زمانه وأوحد أقرانه.

ثم بقي كذلك إلى انقضاء أيام الإمام الجويني، فخرج من نيسابور، وصار إلى المعسكر، واحتل من مجلس نظام الملك محل القبول، فأقبل عليه لعلو درجته، وظهور اسمه، وحسن منظارته وجرى عبارته. فأشار عليه نظام الملك بالمسير إلى بغداد للقيام بالتدريس في المدرسة النظامية، فسار إليها سنة 484 هـ وأعجب الكل بتدريسه ومناظرته، وحضره الأئمة الكبار كابن عقيل، وأبي الخطاب وتعجبوا من كلامه ونقلوه في مصنفاتهم، فصار إمام العراق بعد أن حاز إمامة خراسان، وارتفعت درجته في بغداد على الأمراء والوزراء والأكابر وأهل دار الخلافة.

وقد تخرج عليه جملة من التلاميذ أشهرهم: أبو منصور ابن الرزاز، وأبو عبد الله الجيلي، وأبو الفتح الباقرجي، وأبو العباس الأقليشي، وأبو بكر بن العربي، وعبد القادر الجيلاني وغيرُهم.

لقد عاش الغزالي في عصر شهد تدهورا سياسيا كبيرا في العالم الإسلامي، فقد كان السلاجقة يحكمون بغداد بعد قضائهم على دولة بني بويه سنة: 447هـ. وقد قتل أَلْبْ أَرْسْلاَن عام 465هـ ثم تولى الحكم بعده ملكشاه الذي استمر حكمه إلى سنة: 485هـ. وتقاسم العالم الإسلامي دويلات كثيرة فالفاطميون الشيعة في مصر والشام، والحسن الصباح الباطني –زعيم الحشاشين– في فارس وفي قلعة الموت في بلاد الديلم يثير الرعب باغتيالاته المعروفة، والمرابطون والسنة مستقلون بالمغرب، والنصارى يقتطعون من بلاد الإسلام المركز بعد الآخر واستولوا على القدس عام: 492هـ...وهكذا.

وقد احتدم في زمن أبي حامد الصراع المذهبي الذي شكل الإسماعيلية فيه الورقة الصعبة، ولذلك عهد الخليفة المستظهر بالله إلى الغزالي الرد عليهم. وانعكست هذه الصراعات الفكرية على نفسية الغزالي الناشد للحقيقة فتولد لديه شك منهجي قوي أزم نفسه وألزم روحه القعود عن التدريس عام 488هـ، ولذلك تخفى عن الناس وسافر إلى الشام، ثم إلى الحجاز. وبقي في غربته سنتين متأملا مناجيا مكبا على تزكية نفسه. ولم يخرج من عزلته إلا بعد عشر سنوات من الانقطاع، فأعلن بعد عودته خلاصة تجربته التي أسلمته إلى الاعتقاد بأن منهج الصوفية هو المنهج الأسلم والأضمن، وأن إيمان هذه الفئة هو الموجّه إلى سلوك الطريق الأصوب، وأن أخلاقهم هي أزكى وأرفع الأخلاق.

توفي أبو حامد الغزالي يوم الاثنين 14 جمادى الآخرة سنة:505 هـ في مدينة طوس، وسأله قبيل الموت بعض أصحابه: أوص، فقال: «عليك بالاخلاص»، فلم يزل يكررها حتى مات. وقيل، إنه مات والبخاري على قلبه، والله أعلم.

منهج الغزالي الفكري وأشعريته:

كان الغزالي أنبغ تلميذ خرجته مدرسة الأشاعرة، كما أنه باتفاق الباحثين أحد أبرز أعلام الفكر الإسلامي، قرنه أحمد صبحي في الحضارة اليونانية ب»أرسطو» وفي الحضارة الأوروبية الحديثة ب»ديكارت» و»كانط» وقال: «لا أظن أن هناك مفكرا يشغل نفس المكانة في الحضارة الإسلامية وربما على نحو أكثر تمثيلا وأعمق تأثيرا من الإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي».

وبخصوص أشعرية الغزالي يرى ابن خلدون أنه أول من كتب في (طريقة المتأخرين) بدقة، لأن شيخه الجويني عمل –من خلال مؤلفاته– على إشاعة علوم المنطق بين الناس، فعرف المنطق على أنه معيار للعلم تسير به الأدلة، فكان الغزالي إذن أول من أدخل تلك النظريات المنطقية إلى حيز التطبيق، وألف على أساسها، مما جعله يعيد النظر في كثير من القواعد والمقدمات التي بنى عليها أسلافه آراءهم الكلامية، فلما قاسها الغزالي بمعيار المنطق «ردهم إلى ذلك فيها».

ومن جهة أخرى فإن تعمق أبي حامد في الدراسات المنطقية جاء كرد فعل لظروف فكرية وسياسية عاصرها، منها شدة الصراع بين أهل السنة والإسماعيلية الباطنية. فقد كان التعليمية من الإسماعيلية يشكلون خطرا داهما على الدولة الإسلامية وعلى مذهب الغزالي العقدي ودولته، فاضطر إلى خوض غمار الفلسفة وسبر أغوارها من أجل فهم مذاهبهم والرد عليها، لأن آراء الإسماعيلية كانت مزيجا من الفكر الفلسفي اليوناني والغنوصية. ولذلك ألف الغزالي أولا في الرد على الفلاسفة «مقاصد الفلاسفة» ثم «تهافت الفلاسفة»، قبل أن يتوجه للرد على الباطنيين الذين دفعه ولي نعمته «نظام الملك» إلى دحض آرائهم، فألف: «فضائح الباطنية» وغيره من المؤلفات في ذلك. وبما أن المنطق كان ضمن العلوم الفلسفية التي درسها فقد كان من الطبيعي أن يتأثر به ويتخذه أداة في استدلالاته، بل اعتبره «القسطاس المستقيم» الذي يعتمد عليه لقياس القضايا والآراء، وادعى أن كل العلوم النظرية العقلية والفقهية متوقفة عليه.

إن من أهم ما يسجل للغزالي أو عليه هو مزجه العجيب بين الكلام والمنطق والفلسفة والتصوف. وإذا كانت مدرسة المغرب الأشعرية قد تبنت مواقفه وآراءه الكلامية في عصور طويلة – من خلال عنايتها بكتابه «إحياء علوم الدين» –، فيكون من السهل تبين المسار الذي اتخذه علم الكلام في بلدنا المغرب بفعل ذلك التأثير. وعلى كل فإن الغزالي هو أول من وضع للمنطق أرضية صلبة داخل الحقل الفكري الأشعري، وعزز وسائل المعرفة الأشعرية بأدوات حدسية كشفية جديدة. كما أنه وضع

العقل في منزلة تفوق منزلة الدليل الشرعي، إلا أنهما معا لا يثبتان أمام الدليل الكشفي الذي له التقدم وإليه الاطمئنان.

أما دوره في تجديد القضايا الكلامية فإن أهم ما يمكن اعتباره جديدا هو طريقته في عرض القضايا، ثم توسعه في شرح بعضها، وحسن استدلاله عليها. ومن أهم تلك القضايا التي يُذكر أنه تميز فيها داخل مدرسته قضية: «السببية»؛ فرغم سبق الباقلاني والبغدادي والجويني إلى إثارة موضوع عدم ارتباط الأسباب بالمسببات، وإلى تأكيد مبدأ (العادة) الذي ارتكز عليه دفاع الأشاعرة في إثبات المعجزات، رغم ذلك يبقى للغزالي الفضل الأكبر في بسط هذه المسألة وبلورة رأي الأشاعرة فيها بالتفصيل والتقريب.

ومن جهة أخرى فيسجل للغزالي أنه حدد مصير علم الكلام حين أبعده عن العوام، وحين غلب روح الإيمان على منطق الجدل، وحين أوجب على جمهور المسلمين الاعتراف بالعجز والإمساك والسكوت والتصديق وللتقديس والتسليم لأهل المعرفة. ولا يفهم من كلامه تحريم علم الكلام، ولكنه قصد بذلك موضعته في مرتبة فرض الكفاية فقط يقوم بها وتسند إلى علماء الكلام خاصة.

كما يسجل للغزالي أو عليه أنه عمل على القضاء على الفلسفة في المشرق الإسلامي قضاء تاما، فلم يُعرف بعده فيلسوف على نحو الفارابي وابن سينا في المشرق. فقد حاول إبطال أقوال الفلاسفة في التقريب بين الدين والفلسفة، وناقشهم في دعاوي طلب الحقيقة عن طريق العقل كما يطلب الدين الحقيقة عن طريق الوحي، وحاول إظهار الفكر اليوناني كما تبناه فلاسفة الإسلام فكرا غريبا دخيلا معارضا لعقيدة الإسلام. ولكنه في نظر الكثير من الباحثين كان مسؤولا عن الترويج للفلسفة الأفلاطونية ضدا على الفلسفة المشائية، وذلك بانتصاره وتبنيه للحكمة المشرقية، ومن ثم انتهجت الفلسفة من بعده نهجا أفلاطونيا أفلوطينيا لدى فلاسفة الإشراق الذين يعد الغزالي من أحد رؤوسهم.